الصّرصار

د. هاني الرّاهب

أشرقتِ الشّمسُ في ذلك الصّباح الشّتائي. أفاق أبو ثائر وضغط على زرٍّ في ساعته. طَمْأنه ضوءُ السّاعة إلى أنّ الوقت مايزال باكراً.

انقلبَ على بطنه. ووضع الوسادة تحت رقبته وصدره. كانت اجتماعاتُ البارحة كثيفةً وكثيرة. وكان آخرها مرهِقاً. وإذْ صعدت الشّمسُ عبر مسيرتها السّماويّة، هبط هو من جديد إلى قرارة النّوم.

أفاق بعد ساعة وضغط على الزّر. دقائقُ وتنتهي السّاعة التّاسعة. تمطّى. نهض. مسح حبيبات العرق عن نحره وجبينه. هبط عن السّرير. بحث بقدميه عن ممشاته. مدّ يده إلى السّتارة وتحسّسها حتّى لامس الحَبْل. ارتدّ شِقّا السّتارة إلى زوايتَي الجدار. ألفتْ عيناه الظّلام. هذه المرّة، مدّ يده مباشرةً إلى ملفاف الستارة الخشبيّة.

سطع ضوء الشّمس في الغرفة. غمر وجهَه وكتفيه ونحره وذراعيه. تمطّى للصّباح الجميل. لن ينسى قبل خروجه أن يوقف مشعّات التّدفئة، ويترك للشّمس أن تتغلغل في المنزل كلّه. وعاوده كدر خفيف: منذ زمن بعيد وهو لا يستطيع النّوم إلاّ في الظّلام الدّامس. وقف يتأمّل الفيضَ السّماويَّ البعيد. لم يعرف لِمَ. انسحبتْ عيناه إلى شذرات الغيوم، فأعالي الأشجار في البساتين البعيدة، فرؤوس البنايات المتقاربة كحشد جماهيري، لتحطّا أخيراً على حديقة المنزل.

الحديقة واسعة نسبياً: ستمئة متر مربع. نباتاتها النّادرة وأشجارها محميّةٌ بسور اسمنتيّ. السّور الاسمنتي معمّم بمثلّثات ثخينة من قطع الزّجاج المدبّبة. النّافورة الدوّارة تنثّ الرّذاذ على الحشيش الكثيف. والشّمس أيضاً. الأشجار والأزهار تترجّح في الضّوء النّمير. على أوراقها قطراتُ مطر.

نظر عبر الباب الحديدي إلى الحَرَس. لاحظ أنّ الحارسيْن جالسان باسترخاء. تضايق. أدار رأسه إلى الشّارع المقفر. رأى الحارسين الآخرين على بعدٍ مناسب من المنزل بيديْ كلٍّ منهما باردوته نصف الأتوماتيكيّة. الشّارع مقفر. اطمأن قلبه.

الشّارع مقفر. سوى ذلك الطّفل يبرز من لا مكان. يمشي تنسحب أصابعه على قضبان السور الحديدي للبناية المقابلة.

لأمر ما سرق الطّفلُ عينيْه: خطواتُه رتيبة ولكنْ نشطة. أصابعه تتزحلق على قضبان الحديد المدبّبة الرّؤوس. استغراق تام. غير آبه لشيء، وخاصّة لحارسي الشّارع المقفر. بل ثمّة ما هو أكثر من ذلك في هذا الاستغراق. القامة الصّغيرة، العزلاء، الخالية من أي مشهد للقوّة. تلك الحركة الغافلة. الطّفل نفسه. هذا الكيان الصّغير الهشّ. لكأنّه يسرق منه شيئاً أكثرَ من مجرّد العينين، شيئاً غامضاً لا يعرف ما هو، لكنّه مقلق، بل مغيظ.

فجأة اقتلعت أصابعُ الطّفل قضيباً. غافل الحارسيْن. اندفع نحو النّافذة. تسلّق السّورَ الحديديّ المزجّج. أرجع جذعه إلى الخلف.

اخترق الرّمح أشعّة الشّمس، وطبقات الهواء، ومالت الأشجار يميناً ويساراً لتفسح له الطّريق. اخترق زجاج النّافذة، ووصل رأسه المدبّب إلى ترقوة أبي ثائر.

خرج إلى الحمّام. هناك كان لابدّ من الدّخول المضني في رتابات الصّباح الأليمة: التبوّل، غسل الأصبعين بعد التبوّل، التردّد أمام فرشاة الأسنان، إرغاء المعجون على الوجه، الحلاقة، غسل الوجه، المَضْمَضَة، التّنشيف. كان الطّبيب قد نصحه بالوقوف دقائق معدودات تحت ماء السّحاح. وبعد حين اكتشف أنّ العمليّة صارت جزءاً من نمطيّة الحياة الخانقة؛ وهو رجل يكره العبوديّة، أيّاً كان شكلها.

تلك الممارسات كلُّها صارتْ جزءاً من عطيّة الحياة الخانقة، بل عبوديّة الحياة. هذا الطّفل السَّمِج: أيّة متعة مرحاضيّة كان

يلقى في تمشيط أصابعه على جدران السُّور؟

قالت أم ثائر إنَّ الفطور جاهز، والأولاد ينتظرون. المجموعة الثانية من رتابات الحياة ـ بل الصّباح ـ الأليمة. لا، لا. هذا اليوم لن يفطر. «كلي أنت معهم». فهو إذا أفطر، فسيغسل يديه وفمه مرّةً ثانية، وبالصّابون. وهناك احتمال أدْهى وأرجح: أن يُضطرّ للدّخول إلى المرحاض؛ وهذه ثالثة الأثافي. إنّ لديه اجتماعاً هاماً بُعَيْد العاشرة.

عاد إلى غرفة النّوم. رمى الرداء. بدأ يفكّ أزرار البيجامة. وها هي ذي أم ثائر، حاملةً كوب حليب. كالعادة. وستقول له: «اشربْ هذا على الأقلّ. بعد قليل تبدأون بشرب القهوة على الرّيق. فنجاناً وراء فنجان. وفي آخر اللّيل يجافيك النّوم».

كالعادة: لا مجادلة مع أم ثائر. وضع حافةَ الكوب بين شفتيه، ودلق محتوياته في فمه.

أمام البوّابة وجد السّيّارة جاهزة. انتفض السّائقُ من غفوته وأدار محرِّكَ السّيّارة. هرع الأربعةُ الآخرون. اصطفّوا بانتصابة صارمة. أوّلُهم فَتَحَ الباب. أجابوا بنبرة واحدة: «صباح الخير، سيّدي». أوّلُهم أغلقَ الباب. ركب قرب السّائق. هرع الآخرون إلى السّيّارة الأخرى.

نظر إلى السّائق بفضول. كيف يا ترى يستطيع هذا الإنسانُ أن ينام في الضّوء السّاطع! على المقعد! بسرعة ينام وبسرعة يفيق! خمسة أولاد. ويا لهذا الأنفِ المريع، مثل حدِّ السّكين، مدبّب، مدبّب! اخترق الرّمحُ أشعةَ الشّمس وطبقاتِ الهواء. لانَ له حديدُ السّيّارة. وها هو ذا مندفع إلى الظّهر.

بحركة غريزيّة شدّ أبو ثائر ظهرَه إلى الخلف. وانشدّتْ راحتاه على المقعد. يا للبلاهة. يا للبلاهة المطلقة! أوَيَشُدُّ ظهره إلى الخلف والرّمحُ قادمٌ من هناك؟ أهو عاجز إلى هذا الحدّ أمام هذا القدوم؟ الرّمح. الطّفل المريع. من أين نَبَق هذا الصّباحَ في الشّارع المقفر؟

اخترقت السّيّارتان شوارعَ كالأنهار مكتظّةً بالسّيّارات والبشر، وجسراً فوق النّهر المديد البطيء. المجموعة الثّالثة من رتابات الصّباح الأليمة. ثلاث مرّات نفخت السّيّارة الخلفيّة نفيرَها الاسرافيلي لتفكّ الزّحامَ عن السّيّارة الأماميّة. لكأنَّ شيئاً جميلاً هذا الزّحامُ، منعشاً، بشرياً، له رائحةُ أرضٍ بلّلها المطرُ ـ لولا أيادي الغدر والخيانة الّتي يمكن أن تمتدّ في أيّة لحظة.

تهادت السّيّارتان في الشّارع المقفر. اتجهتا إلى المدخل المفتوح. حركة مفاجئة فتحت البوّابةَ الحديديّة. انتصابة صارمة. قبل أن تقف السّيّارة كان الأوّلُ قد انبثق منها. فتح الباب الخلفي. خرجت ساقا أبي ثائر. وفي تلك اللحظة تذكّرت حواسُّه فنجانَ القهوة في المكتب.

في المكتب كانت مفاجأة صاعقة تنتظره. مفاجأة أطارت الضَجَرَ والخمولَ من ذهنه. في العادة، يكون العبور من عند البوّابة الحديديّة إلى الرّواق، فالمكتب، عبوراً متدرّجاً إلى جوّ المجموعة الرّابعة من رتابات الصّباح الأليمة. وهكذا كان، صعد درجاً. حيّا من حيّوْه. تجاهل الهرجَ والمرجَ اللّذين سبّبهما مجيئُه. أحسّ أنّ بوسعه الآن أن يوقّع على الأوراق، ويعتذر عن إعطاء المواعيد، ويحضر الاجتماعات المطوّلة. وحتّى بعد أن رآهم جالسين منتظرين، وسلَّم عليهم، لم يخطر له أن مفاجأة بهذا الحجم تكمن وراء ابتساماتهم الودودة الوقورة. حقّاً، قليلةٌ هي اللّحظات الّتي ينسى المرءُ فيها مكانَهُ وزمانَهُ.

«أبو مازن يهرب! مستحيل!»

«أبو مازن. وفي هذه الظّروف المصيريّة الّتي يمرّ بها البلد.»

«قطعاً في الأمر خيانة.»

«إنْ لم يكن مؤامرة من نوع جديد لم نألفه حتّى الآن.»

«حتماً هناك مؤامرة. والأمر أخطر بكثير ممّا نتصوّر.»

«ولكن كيف هرب؟»

«مايزال الخبر صعباً تصديقه. واحد لهُ مثل هذه الخطورة والصّدارة!»

«لأنّ أبو مازن مناضل صلب. ورفيق عتيق. ألا يمكن أن يكون أعداء الثّورة قد اختطفوه؟»

«لا يا أبو ثائر. مسألة هروبه، هذه لا شكّ فيها.»

«ولكن كيف هرب؟»

«عندما أدرك أنّ أمره انكشف، هرب.»

«ما الّذي انكشف؟»

«تواطؤه مع أعداء الثّورة.»

«كيف يعني، انكشف؟»

«هناك أجهزة تسجيل حديثة. الواحد منها بحجم الصّرصار. ثُبِّتَ واحدٌ منها في كرسي مكتبه، وواحدٌ في كرسيّ سيّارته،

والثّالث وْضع لا أعرف أين في بيته. الحقيقة، منذ مدّة وجهاز أمن الثّورة مرتاب فيه. ولكنْ نظراً لمكانته ونضاله الطّويل لم يصدّقوا الحقائقَ الدّامغة. الصّراصير الثّلاثة قطعت الشكَّ باليقين. عرفت كيف، أبو ثائر؟»

«طبعاً، طبعاً. ولكنْ كيف أفلت؟ مجرم من هذا النّوع يجب أعدامه فوراً. كيف هرب؟»

«لماذا لم يطاردْه رجالُ أمن الثّورة؟»

«لا يهمك. سيلقى جزاءه العادل».

«سيُفرغون رصاصَهُمْ في ظهره الّذي أداره للثورة.»

«العملاء وأعداء الشّعب، أخفَوْه، فكأنّه لم يكن.»

«هذا الخائن، الوغد.»

«باع شعبه، ووطنه.»

بالطّبع، أُلْغِيَ اجتماعُ السّاعة العاشرة الهامّ، واجتماعُ السّاعة الثّانية عشرة. تقرّر عقد اجتماع عام طارئ لبحث الوضع الجديد، وإصدار بيان في المكتب يقطع الطّريقَ على الخائن المرتدّ. مكث أبو ثائر منتظراً الدّعوةَ لحضور الاجتماع. أعطى لسكرتيره عبارة «غير موجود»، للردّ على المخابرات. استقبل الزوّار كالعادة.

في الثّانية أبلغوه أنّ الاجتماع سيبدأ بعد عشر دقائق. للتوّ تفقّد علبةَ الدّخان. بعد ثلاث دقائق أبلغوه أن الاجتماع تأجّل. خرج من وراء المكتب كارهاً الجلوس. مشى. وصل إلى النّافذة. منذ متى يا ترى وهذه السّتارة مسدلة؟ ما الّذي وراء الأبجور نصف المغلق؟ قد تكون الشّمس ساطعةً في الخارج بَعْدُ.

دخل أبو شحادة حاملاً شطيرتيْ فلافل عرمتين، كعادته حين يراه متأخّراً في المكتب. جلس على الأريكة وراح يلتهمهما. اكتشف أنّه جائع حتّى التضوّر، وأنّ فمه يفلح فيهما كالجرّافة، وأنّ هذه الفلاحة تمنحه شعوراً بالأمان. أبو شحادة يعرف غَرامه، يعرف أنّه لن يقاوم الفلافل رغم كرشه المتنامية. آه. تمطّى واسترخى. تثاءب. أغمض عينيه. اخترق الرّمحُ أشعةَ الشّمس وطبقاتِ الهواء والأبجور والسّتارة. انتفض. انتصب في الأريكة. يا للسخف. بل يا للحَيْوَنَة. نتفة طفل، مؤكّد أنّه بندوق، يُكَوْبس عليه. طار النُّعاس. على كلّ حال، لم يكن ليستطيع أن ينام. ولكن منذ متى وهو لا يستطيع النّوم إلّا في الظّلام؟

استرخى ثانية على الكنبة. لأمرٍ ما طرفتْ عيناه إلى الثّريّا المتدليّة من السقف. في ذرّة خاطفة من الزّمن انتصبت شعيراتُ أعصابه. معقول! تجمَّدَتْ عيناه على بقعة صغيرة سوداء ليست من أصل الثّريّا. نهض كالمُسَرْنِم. مشى. صعد على الطّاولة الصغيرة. نزل. جرّ كنبة. وضع الطاولة الصغيرة عليها. داس على الكنبة الطاولة الصغيرة. صارت عيناه أمام البقعة الصّغيرة السّوداء. ليست بقعة. حجم. كتلة صغيرة نافرة. بحجم الصّرصار.

زاغ بصره. أمسك بالثّريّا. أمسك بالحجم. شدَّه. حَفَرَهُ بأصابعه. لم يتزحزحْ. وضعه بين أسنانه وأطبق عليه. خرج بسهولة. أمسكه بيده. يا للأبالسة! ما هذا؟ تجويف وحسب! حقّاً له شكل الصّرصار، لكنّه مجرّد تجويف. لا أسلاك فيه ولا يتّصل بأيّ سلك! مكانه على الثّريّا اختفى. أهذا هو الجهاز العجيب؟ يا للسّخف. بل يا للحَيْوَنَة. طبعاً لا. ودونما عناء سحقه بين أصابعه. سحقه تماماً. وذرَّ نثارته على السّجّادة.

دخل أبو شحادة. شهق. طبعاً. معه حق. أليس ذلك شيئاً مضحكاً؟

«رأيتُ وسخة على الثّريّا. لم تعد تنظّفها أيّها الكسلان.»

لم يجبْ أبو شحادة. لم يصدرْ عنه أيُّ انطباع. سوى أن عينيه راحتا تمشّطان وجه أبي ثائر، كأنّهما أصابع. اخترقتا طبقات الهواء صُعُداً، وضوءَ الكهرباء.

بوثبة واحدة صارت قدما أبي ثائر على السّجادة. «أيّها الكسلان! هات خرقة، هات، وامسح الثريّا!» أنزلَ الطاولة الصغيرة عن الأريكة. عاد إلى طاولته. جلس. لكنّ أبا شحادة لم يتحرّك. التفت أبو ثائر إليه مستنكراً وقفته.

انغلق الباب ببطءٍ وراء أبي شحادة. وثبتت عينا أبي ثائر على المقبض. راحتا تمشّطانه بهدوء، وهو يعلو حول محوره بهدوء. أبو شحادة؟ مستحيل. أصلاً هذا الصّرصار لم يكن شيئاً. أبو شحادة؟ هه! أصبعان فقط سحقاه، فأي جهاز تسجيل؟

مدّ يده إلى الخلف وأطفأ النّور. غرقت عيناه في ظلام دامس. استرخى في مقعده الوثير الضّخم. ثمّ داعب النّوم أجفانه.

لقد خدم الثّورة كما لم يخدمْها أحد. كان السّاعدَ الأيمن.

وفي هذا السّبيل تعرضتْ حياتُهُ للرّصاص القاتل أكثرَ من مرّة. لا. ليس هناك شيءٌ يخاف منه. أبو مازن وغد، خائن، عميل، متآمر، بورجوازي حقير، رجعي نتن، وَسَطي انتهازي. كان رائعاً أنّ جهاز أمن الثّورة كَشَفَهُ، رغم الثّقة المطلقة في ذلك القلب الكبير. ولكن، متى تحوّل أبو مازن هذا التحوّل المذهل؟

فجأة انتفض في كرسيه. لابدَّ أن يُعقد الاجتماع، وسيقول كلاماً كثيراً. سيطالب بالتشدّد في مراقبة الازدواج والباطنيّة الثّوريّة. إنّما متى يأتي ويترأسه؟ طبعاً، يجب أن يتأكّد مصير أبي مازن أوّلاً، يجب أن يطوّق الحادث بسرعة، بعدئذٍ يأتي ويترأس الاجتماع، أو يستدعيهم إليه. إذا هرب ذلك الجبانُ، سيعطي مادّةً دسمة لأعداء الثّورة. لذلك لن يأتي إلى الاجتماع قبل أن يتأكّد من مصير أبي مازن. طبيعي، وهو الرّجل الّذي يكره الخيانة ولا يسمح بخلل من هذا النّوع.

في حوالي الخامسة، اندفع الشّابُ إلى الغرفة. الأخبار؟ طيّبة. والبِشْرُ يسرح في الوجوه.

«في البداية جاءت إخباريّة أنّ أبا مازن مختفٍ في شارع حطّين. طُوِّق الشّارع على الفور. فُتِّش بيتاً بيتاً. ثمّ جاءت إخباريّة ثانية أنّ سيّارة مريبة تتّجه إلى الحدود. أُصدر أمر بأن تطلع حوّامة فوق ذلك الطّريق. وطلعت الحوّامة».

«وبعد؟»

«قائد الحوّامة أخبره باللّاسلكي أنّه يشاهد سيّارة تنطبق عليها الأوصاف.»

«وبعد؟»

«أخبره قائدُ الحوّامة أنّه تحقّق من السّيّارة، ومن وجود أبي مازن فيها.»

«وبعد؟»

«لا شيء. لم يقل لنا مديرُ مكتبه شيئاً.»

«والاجتماع؟ متى سيدعونا إلى الاجتماع؟»

«متى يشاء. الآن. لا نستطيع حتّى أن نخمّن ما تكون مشيئته.»

«قد لا يدعونا إلى الاجتماع.»

«كيف! لابدّ أن يدعونا!»

«أبو مازن.. أغلب الظّن لاقى جزاءه الّذي يستحقّه. والأمور عادت إلى مجراها الطّبيعي.»

«فعلاً. لماذا الاجتماع إذن؟»

في العاشرة ليلاً تأكّد أبو ثائر والشّباب أنّ الاجتماع لم يعد وارداً. وفي السّيارة أحسّ بشيء من الإحباط وشيئين من الارتياح. سيدخل فوراً إلى غرفة النّوم، يسدل السّتائر، يطفئ النّور تماماً، وينام. تطامنتْ نفسُهُ. من ظهر المقعد الأمامي سحب المنفضة إلى الخلف. نفض رمادَ السّيجارة. ولكنْ ما هذا؟

تخثَّر عقلُهُ وراء بوّابات أفكار شاءَ أن يغلقها. تخثَّرت سبَّابَتُهُ وإبهامُه رعباً على التّجويف الصّغير، وعيناه أيضاً. أمام الفيلّا، هبط من السّيّارة كأنّه جُلِدَ مئةَ جَلْدَةٍ. أحسّ بأنّ مفاصله قد تباعدتْ، وأنّ كتفيه قد هبطا.

ومع ذلك أعطى توجيهاته للحرس، وتمنّى لهم صباحاً خيِّراً. دخل. تلقَّفَتْه أم ثائر في المدخل. «ما بك؟»

«ما بي؟»

«تنظر إلى اللمبة هكذا! أَوَلا تعرف أنّ هنا لمبة؟»

اندفع إلى البهو. نظر إلى الثّريّا الأولى، فالثّانية. وقف مبهوتاً. لحقتْ به أم ثائر:

«عندك ضيوف. وفد فلّاحين من ضيعتكم».

اندفع إلى الممرّ. نظر إلى اللّمبة. تخثّر. لحقت به أم ثائر:

«محمود! ما بك!»

«ولكن، أنا لا أفعل شيئاً!»

«من يقول إنّك تفعل؟»

«هذا الصّرصار! الصّرصار!»

«من هو الصّرصار؟»

اندفع إلى غرفة نومه، ونظر. فإلى غرفة ثائر، ونظر. غُرَف النّوم الأخرى. اندفع نازلاً الدّرجَ. اندفع إلى المضافة. عيناه عالقتان بالثّريّات. «أنا لا أفعل شيئاً! لا أفعل شيئاً». نظر إلى الفلّاحين الّذين وقفوا بمهابة وارتباك. إلى أيديهم الّتي امتدّت للسلام. بعضها كان مجوّفاً. وبعضها استقام كالسّيف. ممدودة للسلام. لم يدر. أهي الصّراصير الصّمّاء على الثّريّا، أم هذه الأيدي، الّتي اخترقتْ أشعةَ الكهرباء، وطبقات الهواء، ووصلت رؤوسها المدبّبة إلى ترقوته؟

سوريا ١٦/ ١١/ ١٩٨٢